عندما بلغت الأربعين

بقلم: السيد سامي خضرا

"فقُمْتُ بالأمر حين فشِلوا، وتَطَلَّعتُ حين تعقبَّعوا (أختبأوا)،ونطَقْتُ حين تَعْتعوا (تلعثموا)، ومضيتُ بنور الله حين وقفوا".

"وأيْمُ الله،... ما ضعُفْتُ، ولا جبُنْتُ، ولا خُنْتُ، ولا وَهَنْتُ، وأيمُ الله، لأبقُرنَّ الباطِلَ حتى أُخرجَ الحقَّ من خاصرتِه"

نهج البلاغة _ الخطبة 37

نهج البلاغة_ الخطبة104

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

بدأت العمل للإسلام مع بدء التزامي في منتصف العقد الثاني من عمري، وكنت متحمساً مندفعاً.... ولا يعلم إلا الله تعالى كم سدَّدني وهداني وثبَّتني ونجَّاني.

وعاصرت الرعيل الأول للنهضة الإسلامية الحاليّة، وعندما بلغت العشرين من عمري ظننتُ أنِّي مؤهل لأن أفعل كل شيء!

وعندما بلغت حوالي السادسة والعشرين من عمري ظننتُ أن خبرتي وافية وتجربتي كافية ! ثم بعد الثلاثين أخذتُ أفهم الأمورَ أكثر، وأخذتُ أتعلَّمُ من مخزون الأيام السالفة والأحداث المرافقة، وكانت الدروسُ قاسيةً ومؤلمةً دفعتُ ثمنها من صحتي وراحتي وتفكيري.... ودفع ثمَنَها معي مَنْ عايشني أو عناه أمري، فتعلمت أن هناك دروساً يتعلَّمها المرء من مدرسة الحياة والمعاشرة لا يتعلمها في المدارس والجامعات والمعاهد والحوزات...

أما أخباري الآن:

إن الدروس مستمرة، وما زلتُ أتعلّم، وما زلنا ندفع الثمن...

15 جمادي الثانية 1417 هـ

بيروت

سامي بن حسن خضرة

عن الزعـامة والمسؤولية

*علمتني الحياة الدنيا أن أكثر الزعماء يُحِبون من يمدحهم ولو كان مستهزئاً بهم، ولا يحبون من ينصحهم ولو كان صادقاً.

*وعلَّمتني أن أكثر من تُعطى لهم المسؤوليات هم في خطر عظيم على الدنيا والآخرة.

وعلَّمتني الحياة أن العمل إذا وقع في مشكلة كثرت الإتهامات والملامات، وإذا وصل إلى أهدافه كثرت الإدعاءات والتبجحات.

*وعلَّمتني أن أكثر من يعمل بالسياسة.... لا يجيدها، وإنما يتستر وراء منصب، أو يحفظ بعض المصطلحات، ويجيد تحريك يديه.

*وعلمتني الحياة أن من يريد العمل السياسي أو الإجتماعي لا بد أن يكون محمياً أو "مُغطى" وعندها يقال عنه دوماً أنه فهيم ومصيب، وإن كان غبياً وسطحياً.

أما إذا لم يكن كذلك: يُقال عنه إنه متهور وسخيف، مهما كان حكيماً وعميقاً وخبيراً.

فالمَرضي عنه مصيب وإن أخطأ، وغير المرضي عنه مخطى وإن أصاب!

* وعلمتني الحياة أن كثيراً من الناس يُسخطون الخالق برضى المخلوق.

وتعجبت من أهل الوجاهة كيف يفرحون بمدح المدَّاحين لهم... وأكثرهم بهم مستهزئون.

* ومن جملة الدروس القاسية التي علمتني إياها الحياة، أنك تُحرج وتُحاسب وتُناقش وتُلاحق..... على قرارات إتخذها غيرك، ولم يكن لك فيها ناقة ولا جمل.

ورُبما تصبح حياتك جحيماً من دون أن تدري ماذا يجري، ولِما يجري، وكيف؟ ولا تدري لحساب من الذي يحصل!!!

* ومن المسلَّمات التي تعلمتها في هذه الدنيا، أن سكرة الدنيا.... أشد وأدوم وأخطر من سكرة الخمر.

وعلَّمتني الحياة أن السكوت في بعض الأحيان... جُبْن، وأن الإستقالة في أحيان أخرى... شجاعة وجرأة لا يقوى عليها كلُّ أحد .

عن المؤسسات

*علَّمتني الحياة الدنيا أن كثيراً ممن يعملون في مؤسّسات يُسيطر عليها أشخاص وجمعيات ساخطون مما يدور حولهم وعلى من يقوم عليهم.. لكنهم يسكتون حرصاً على لقمة الطعام ورزق الأطفال!

*وعلَّمتني أن أكثر المناصب لا تُعطى لأهلها، وأن أكثر من تُعطى لهم ليسوا أهلاً لها.

وعلَّمتني أن منهم من يُشرِّفُ المنصب ويصبح به خطيرا، ومنهم من يَتشرّفُ بالمنصب ويصبح به حقيرا.

*وعلَّمتني أن المشاريع تبدأ بطهارة وتضحية ومثابرة... فإذا حان وقت توزيع الزعامات، وقعت الخلافات والمشاحنات.

*وعلَّمتني أن الأعمال الصالحة يدعيها الكثير ويعمل لها القليل. *وعلَّمتني الحياة الدنيا أن الكثير من المشاريع العامة تتحول إلى مشاريع خاصة... "للورثة"!!!

*وعلَّمتني الحياة أموراً... جعلتني أتوقع:
أ- أن كثيراً من المؤسسات سوف تحمل عناوين دون مضمون.
ب _ وأن كثيراً منها سيسقط من الداخل.
ج- وأن أكثرها سوف يُجيِّر الى أشخاص...
إذا ما وقعت الواقعة !!!

عن الهمج الرعاع

*علَّمتني الحياة أن الدنيا إذا أقبلت كثُر حول المبخرون والمتزلفون، واذ أدبرت كثرت منهم الإشاعات والإفتراءات.
*علَّمتني ان الناس اذا وجدوا مصلحتهم عند شخص مدحوه وعظّموه وجعلوا فيه ما ليس فيه، ثم إذا إنتهت حاجتهم أنكروا عليه حتى الذي فيه.
*علَّمتني أن الكثير ممن يدفعون الناس ويندفعون أمامهم، ويتحمّسون ويُحمسون الآخرين، فإذا وقعت الواقعة كانوا أول المنهزمين، بل واللائمين!
*علَّمتني الحياة أن القليل من الناس تُخجلهم بنظرة، وأن أكثر الناس تُسكتهم بلقمة.
*علَّمتني الحياة أن أكثر الناس يُقيمون الأشخاص بحسب سياراتهم ومرافقيهم!!! وفي البيوتات رجال لو أقسموا على الله لأبرَّهم.
*علَّمتني الحياة أن كثيراً من الناس يبذلون ماء وجههم، ويهدرون كراماتهم، ليشتروا منصباً حقيراً.
*علَّمتني الحياة ان الرجل الناجح المعروف تكثر الألسن له أمامه، وتكثر عليه من ورائه.
*وعلَّمتني الحياة أن بعض الناس يمدحوك إذا كنت مسؤولاً، ويذموك إذا تركت المسؤولية... وهم أنفسهم يبالغون في مدحك مُجدداً إذا تحسنت أحوالك فيما بعد.
*علَّمتني الحياة أن أكثر الذين يقفون معك إنما يفعلون لا للذات بل للذات، ليستفيدوا من مالك وجاهك وسلطتك.
*علَّمتني الحياة أن بعض الناس يقفون معك قبل الظهر، ويحاربونك بعد الظهر.... ويتزلفون هذه الساعة، ويستَعْدونك بعد ساعة... ويتقربون إذا كانوا معك في الغرفة، ويطعنوك إذا أصبحوا خارجها!
*علَّمتني أن بعض الناس تكفهم عن الكلام بملء أفواههم بالطعام.
وكم رأيتُ من ميسور الحال أو غني أكرموه ورفعوه وقدَّموه ولاطفوه.... حتى إذا إنقلبت به الحال تجاهلوه وأهملوه!
*علَّمتني الحياة أن كثيراً من الناس يُسخطون الخالق برضى المخلوق.

عن المال والسلطة

*علَّمتني الحياة الدنيا أن بعض الناس يدخلون في الدين بالقرآن والسُنة، وكثيراً منهم

يدخل بالمال والرجال.

*علَّمتني أنك ما دُمت مغموراً فلن يتعرض لك أحد، وإذا أصبحت مشهوراً ، فيكاد يتعرض لك كل أحد!

*وعلَّمتني أن بذل المال الكثير خير من هدر الكرامة القليل.

*علَّمتني أن من لديه المال "محبوب" ومن كان فقيراً كان معيوباً.

*علَّمتني أن من كانت له سلطة غُطت معايبه، ومن لم تكن له سلطة تجرىء عليه، وسلطت عليه الألسن.

*علَّمتني الحياة أن صاحب الجاه والسلطان، تُنسب إليه الأساطير من حسن الأفعال، وأن المستضعف يُسلب منه حُسن الأفعال.

*علَّمتني أن بعض الناس يشترون كرامتهم بأموالهم، وأن البعض يشترون الأموال بالكرامات.

*وعلَّمتني أن البعض يأكل ويشبع ويقنع ، وأن البعض يأكل ولا يشبع ولا يعرف القناعة.

*علَّمتني أن جُل الخلافات بيننا تبدأ عند السلطة أو المال.

*علَّمتني أن الكثير من القامات العالية تنحني أمام سلطان المال وسلطان المنصب، تماماً كما كانت في حقبات التاريخ....

* ورأينا في التجربة الإنتخابية عشرات الأشخاص أشكالهم تُشير على أنهم كبار، وهم في الحقيقة صغار.

*وعلَّمتني هذه الدنيا، أنّ أكثر الكبار لا يستفيدون من عبر الحياة وسُنن التاريخ حول مصير السلطة والجاه والمال والظلم والبغي والتجبر والعدوان... "والأنا".

*علَّمتني أن التزلف والتملق والرياء... عوامل أساسية لنيل المناصب والرواتب !

*علَّمتني أن من أصعب الأمور على الإطلاق أن تجد شخصاً يقول كلمة الحق بكل جرأة وشجاعة... مُتكلاً على الله تعالى في رزقه وحفظه... دون أن يُفتش عن المبررات ويختلق المعاذير.

عن الإخـلاص

*علَّمتني الحياة أن الغَني يجد حوله ألف "صديق"، وأن الفقير لا يجد إلا الضيق.

*وعلَّمتني أن الإخلاص ليس بالضرورة سبيلاً للراحة.

*وعلَّمتني الحياة أن من يُخلص أكثر، يدفع الثمن أكثر.

*وعلَّمتني أن الوفاء والإخلاص لا يجلبان لك الراحة في أكثر الأحيان.

*وعلَّمتني الحياة أن العمل الناجح يَدعيه كل أحد ولو كان بالأمس عدواً له، والعمل الفاشل يُنكره كل أحد حتى أصحابه.

*ومن عجيب ما علمتني الحياة أنك ترى مَنْ هُم في نفس المبدأ والخط والنهج، ثم يتقاتلون أشد القتال، ويتهمون بعضهم بشتى التُهم، وكل يدعي أن فعله حرص على

المصلحة!!!

وأكدت لي الحياة ما كنت أعتقده دوماً، أن التنازل لا يجر إلا التنازل، ويؤدي إلى طمع الناس.

عن الـدين

*علَّمتني الحياة الدنيا أنك لا تستطيع نيل رضى أكثر الناس، فضلاً عن جميعهم.

*علَّمتني أن الذين جاؤوا بالإفك عُصبة منا ، والله يعلمهم.

*علَّمتني الحياة أن أشخاصاً يُمدحون وهم ملعونون عند أهل السماء، وأشخاصاً مَنْسيين، ببركتهم تُمطر السماء وتُخرج الأرض أرزاقها.

*علَّمتني أن بعض الناس لا يعرف الحق، وأن بعضهم لا يريد أن يعرف الحق !!!

*علَّمتني أن البعض يرى الفتوى فيُطبقها، والكثير يعمل بهواه، ثم يُفتش عن الفتوى المبرِرة... ودائماً يجدها.

*علَّمتني أن البعض يأكل ولا يشبع، وأن الصفوة تشبع ولو لم تأكل "يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف".

*وعلَّمتني الحياة أن البعض يأخذ من الدين "ما لا يضر" برأيه ، أو يتخير من الدين ما لا يُتعب !!!

*علَّمتني أن البعض يريد الدين على قياسه، وضُمن شروط معينة!

*علَّمتني الحياة أن بعض الأشخاص يبذلون الغالي والنفيس ليكسبوا محبة الناس ولا يفلحون، وأن البعض يكسب محبتهم... وهو لا يعلم.

*علَّمتني الحياة أن بعض الناس يتخذ العمل للدين "مهنة" !!!

ويبدو أنها مهنة منتجة "ومربحة".

*وعلَّمتني الحياة أن العمل ينمو ما دام لوجه الله، فإذا أصبح للإسترزاق يبدأ بالسقوط.

*وعلَّمتني أن البعض يريد ما ليس مُكلفاً وإلاّ تركه، كما ترك أسمى الفرائض.

*وعلَّمتني أن أكثر الناس جهلاً بالإسلام، هم أكثر الناس إعطاء للرأي والإجتهاد فيه.

*علَّمتني أن أعملَ لوجه واحد، وجه الله العظيم، الذي يُغنيني عن سائر الوجوه.

*علَّمتني أن مَن عمل لوجه الله تعالى فلا ينتظر أجراً من أحد، ومن عمل لوجه الناس فلن يكافئه ..... أحد .

*وعلَّمتني أن الله تعالى يستر على العباد ، وهم لا يسترون على أنفسهم !

وعلَّمتني أن كثيراً من الناس لا يُؤمنون أن الآخرة حق، ولو فعلوا، لتغيرت الحياة.

علَّمتني الحياة أن القائل بالحق قليل، والعامل بالحق أقل، والمدافع عنه أقل منه...

علَّمتني أن السعادة لا تتأتى إلا بتطبيق الإسلام، ما علمنا أسراره وما لم نعلم... دون تهرب أو إختلاق أعذار أو نقاش كَمَنْ يُقارع فيلسوفاً أو مُدعياً..

*علَّمتني أن الحق لا بُد أن يعتمد على قوة حاضرة ليستمر وينتصر.

*علَّمتني أن السلاح لا يُمكن الإستغناء عنه أبداً.

وأخيراً:
ربِّ لا أسألك حملاً خفيفاً بل ظهراً قوياً.
ربِّ ثبّتني على دينك حتى ألقاك.
ربِّ لستُ مُتكلاً إلاّ على رحمتك.

تم بحمد الله ومنِّه في السابع عشر من ربيع الثاني لسنة سبع عشرة وأربعمائة وألف للهجرة النبوية الشريفة، على مشرفها أفضل الصلوات وأزكى التسليمات.

وختاماً
(دعوني وإلتمسوا غيري، فإنّا مُسْتقبلون أمراً له وجوهٌ وألوان).

نهج البلاغة – الخطبة 92